

المصير الإنساني

- لحظة فاصلة
- النفخ فى الصور
- الحساب والعاقبة
- حوار وتقريع
- عاقبة صبر المؤمنين
- حسرات
- حكمة الخلق
- خاتمة السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي
أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن
وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقَلَتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ
﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ
تَكُنْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَحْسِرُوا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا
ءَامَنَّا فَاعْتَفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُ
سِخْرِيًا حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَاهِكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ
كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَدٌ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْسَ لَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ

يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَدْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ
الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴿ المؤمنون الآيات من ٩٩ - ١١٨ .

لحظة فاصلة

قال الله تعالى ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۗ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ المؤمنون الآيات ٩٩، ١٠٠.

خبر يسوقه المولى من وراء الغيب عبرة لأولى الألباب، إن الظالم والكافر والفاسق الذى يرتع فى الدنيا ويستخدم نعم الله فى معصية الله وبجاهر بمعصية الله ورسوله، ويعيث فى الأرض فسادا- يظل سادرا غافلا حتى تأتية لحظة فاصلة لن يتقدمها أو يتأخر عنها، إنه الموت والانصراف من الدنيا والاقبال على الآخرة بحسابها وجزائها..

هنا يتذكر الإنسان ما سعى، لكنه تذكر لا قيمة له ولا جدوى منه فيقول الإنسان ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ﴿١١﴾.

إنه يسأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا غير الذى كان يعمل من السيئات والفواحش.. ولم يسأل الرجعة لمآكل يشتهيها أو ملابس يكتنيتها أو قصور يعيش فيها..

وتلك أمنية خاسرة لأنها جاءت فى غير موعدها وبلا أسبا^ب تقوم عليها وقد فقدت كل معنى يمكن أن يساهم فى تحقيقها..

لقد منح الله الإنسان أجلا فى الحياة الدنيا ويسر له أسباب الهداية وأمدّه بنعم لا تعد ولا تحصى وحذره من عداوة الشيطان ثم تغافل الإنسان عن كل ذلك وأعرض ونأى بجانبه، ولهذا استحق هذا الرد الزاجر وهذه الإجابة الراحمة ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ فهى مجرد كلمة لا مدلول لها، وقائلها كاذب فيما رتب عليها كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨) الأنعام الآية ٢٨.

وقد عبر القرآن عن هذه الكلمة بأكثر من أسلوب، فهى:

﴿يَلَيِّنَا نُرْدُّ وَلَا نُنَكِّدُ بِإِثْمِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧)

الأنعام الآية ٢٧.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاطر

الآية ٣٧.

﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾

الأعراف الآية ٥٣.

﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤) الشورى الآية ٤٤.

وسيظل هذا المنحرف عن الدين فى بروز أى مرحلة متوسطة بين الدنيا والآخرة هى مرحلة عذاب القبر وظلمته، ليس معدودا من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة، فهو فى هذا الوعيد الشديد حتى يخرج الناس من قبورهم يساقون إلى المحشر لفصل الخطاب.



النفخ في الصور

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿ المؤمنون الآية ١٠١ .

للعلماء أقوال في النفخ في الصور هي:

١ - النفخ ثلاث مرات، الأولى نفخة الفزع، وهي نفخة تورث الرعب الشديد ولكن الناس لا يموتون، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ﴿ النمل الآية ٨٧ .

والنفخة الثانية نفخة الصعق وهو الموت، قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ﴿ الزمر الآية ٦٨ .

والنفخة الثالثة هي نفخة القيام من القبور والبعث والنشور، قال تعالى ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿ الزمر الآية ٦٨ .

٢ - ومن العلماء من يرى أن النفخ مرتان هما نفخة الفزع أو الصعق فهذه واحدة ونفخة القيام وهذه هي الثانية، ففسر الفزع بالصعق. وأيا ما كان فإن المراد بالنفخ في الصور في سورة المؤمنون هي النفخة الأخيرة يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والصور آلة إذا نفخ فيها ظهر الصوت ضخما عظيما فهي تكبر الصوت وقيل: الصور جمع صورة والمراد النفخ فى الأرواح لتحل فى الأبدان للقيام للحساب والجزاء، أما النفخة الأولى فهي لتخرج الأرواح من الأبدان فيبييت الناس صرعى..

وعندما تقف الخلائق أمام الله الملك الحق المبين لا ينفعهم غير إيمانهم ولا يُغنى عنهم مال ولا ولد، ولا يفتخرون بقوة أو عدة، وتسقط اعتبارات البشرية من الأنساب التى تشفع أو تجامل أو تحابى فالكل يفر من الكل، والجميع يسود الفداء بالجميع قال تعالى ﴿يَوْمَذُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِذٍ بِبَنِيهِ ۖ ﴿١١﴾ وَصَحْبِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۖ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ ﴿١٤﴾﴾ المearج الآيات ١١ - ١٤.

وقد وقف رسول الله ﷺ فى اليوم الأول للدعوة وقال- كما فى صحيح البخارى- يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سلىنى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا.

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ نفى لتساؤل التراحم والتعاطف كما قال تعالى ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ المearج الآية ١٠، وإثبات للهول والشدة والفرع كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ

الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ ﴿٣٧﴾ عَبَسَ الْآيَاتِ ٣٤ - ٣٧ ، وَحَيْثُ إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
طَوِيلٌ وَعَسِيرٌ وَشَاقٌّ فَفِيهِ مَوَاقِفٌ يَتَعَارَفُونَ فِي بَعْضِهَا ، وَيَتَسَاءَلُونَ فِي
بَعْضِهَا وَيَتَحِيرُونَ فِي بَعْضِهَا .



الحساب والعاقبة

قال الله تعالى ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ المؤمنون

الآيات من ١٠٢ - ١٠٤.

إذا قام الناس من قبورهم وسيقوا إلى المحشر، وتجمع الأولون والآخرون قضى الله بينهم بالحق والعدل فيصير الناس فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير..
وثقل الميزان وخفته له عدة معان:

إنه كناية عن العدل المطلق الذي يلقاه الإنسان يوم الحساب أو أن ثقل الميزان يعنى عظم الأعمال الصالحة عند الله وثوابها الجزيل، وخفة الميزان تعنى قبح الأعمال السيئة والعقاب المترتب عليها..

وقيل: إن الميزان حقيقة شرعية ووردت تساؤلات بشأنه: هل هو ميزان واحد لكل الأعمال ولجميع البشر؟ أو لكل فرد موازين؟ وهل الموزون هو العامل أو نفس العمل أو جزاء العمل أو صحف الأعمال؟.

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان:
«سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وفى صحيح البخارى أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه لياتى الرجل
العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: اقرأوا
﴿فَلَا نُفِئُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَا﴾ (١٠٥) الكهف الآية ١٠٥.
فمن رجحت حسناته فهو المفلح الفائز ومن خفت حسناته وزادت
سيئاته فهو المفلس الخاسر..

وركزت الآيات هنا على جانب الخاسرين بيانا لعقابهم وتذكيرا
بقبائحهم وإعلانا لسوء موقفهم من دعوة الحق ودعائه، فذكرت ألوانا
من العقاب، فهم فى جهنم خالدون لا تلحقهم رحمته الله، وتلفح
وجوههم النار فلا كرامة لهم، وهم فيها كالحون، والكلوح أن تتقلص
الشفتان وتتباعدا عن الأسنان، فهو تشويه للغم واللسان تلك الآلة التى
كذبوا بها على الله وسخروا بها من عباد الله، وأنكروا بها البعث
والحساب والجزاء.. فهم الآن يواجهون العاقبة السوء مواجهة لا
خلاص منها ولا انقطاع لها، فالخلود فى الجحيم هو العقاب العادل
لكل كافر خاسر..



حوار وتقرير

الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنذِرُ عَلَيْنِكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴾ **قال** ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴿ المؤمنون الآيات من ١٠٥ - ١٠٨ .

تقدم الآيات هنا أسباب العذاب الذي يلاحق الخاسرين الخالدين في جهنم، وتتوق هذه الأسباب على جهة التقرير والتوبيخ والتأنيب، فهم يدركون حقيقة موقفهم..

لقد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم، وقامت عليهم الحجة وظهرت لهم البيّنات والمعجزات فرفضوا دعوة الحق وأبوا الانقياد للوحي الإلهي وعاثوا في الأرض فسادا..

وأمام هذه الحقيقة لم يجد هؤلاء الخاسرون إلا الاعتراف المهين واتهام النفس الذليل ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ ﴿١٠٦﴾ .

والشقاوة والشقوة سوء العاقبة، والضلال هو الهلاك والضياع.. لقد اختاروا لأنفسهم هذه النهاية المهلكة بفساد اعتقادهم وانحراف سلوكهم وقبح أعمالهم ومواقفهم العدائية تجاه دعاة الحق وأنصاره..

وفى هذا اليوم العصيب الذى لا تقبل فيه شفاعة، ولا يؤخذ فداء،
ولا تتبدل الأحكام يتناسى هؤلاء الضالون تلك الحقيقة فينطقون بكلمة
لا جدوى منها ولا فائدة لها قائلين: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَالِمُونَ ﴾ (١٠٧)

إنهم يريدون العودة إلى الدنيا للقيام بالتكليف الشرعى واتباع
الأنبياء والاستقامة على الهدى، وتلك أمانى كاذبة فات أوانها،
ومضى وقتها..

ولهذا يجابون بما يتناسب مع غفلتهم وسوء تفكيرهم ﴿ قَالَ أَخْسِرُوا
فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ (١٠٨)

والخسأ هو البعد والذل والطرود والإبعاد، وهى من الكلمات التى
تقال للكلب وغيره.. وهذا ما يتناسب مع هؤلاء الضالين، إنهم فقدوا
إنسانيتهم وضيعوا كرامتهم، وتنزلت بهم المهانة إلى تلك الدركة
من الحيوانية..

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٣)
النحل الآية ٣٣.



عاقبة صبر المؤمنين

قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا
 فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ
 سَخِرَاتًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي
 جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون
 الآيات من ١٠٩ - ١١١ .

لا يزال التقريع مستمرا مع الخاسرين الذين خسروا أنفسهم في
 الدنيا واستحقوا النكال في الآخرة..

لقد كان من أسباب عذاب هؤلاء الخاسرين- استهزاؤهم بالمؤمنين
 والضحك من عبادتهم لله رب العالمين..

إن قضية المؤمنين في كل زمان ومكان هي إصرارهم على عقيدة
 التوحيد، واعتزازهم بالولاء لله ورسوله، وطاعتهم لمنهج الوحي
 الصحيح طاعة لا تعرف ريبة ولا يعتريها تردد ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 ءَأَمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾، لكن الخاسرين
 على مدى العصور يأبؤن إلا تدينس الفطرة، والتمرد على الحق،
 والخروج على الاستقامة، وتمتد أيديهم وألسنتهم بالسوء على
 الطاهرين المؤمنين الصادقين..

وقد انشغل الخاسرون بهذا الإيذاء البدنى والنفسى للمؤمنين غرورا
بقوتهم فى لحظة من لحظات الزمن، وتناسوا حقيقة الحقائق وكبرى
اليقينيات وهى ذكر الله الواحد الأحد ذى الجلال والإكرام..

وما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين ولا ليخذل الصادقين الصابرين،
الذين تحملوا البأساء والشدة فى سبيل عقيدتهم، فقد وعد الله - ووعده
الحق - أن ينصرهم فى الدنيا وأن يمنحهم الفوز الأوفى بالفردوس فى
الآخرة قال الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ﴿٥١﴾ غافر الآية ٥١.

وهذا الفوز للمؤمنين الصابرين يعلنه الله تعالى على الملأ من الأولين
والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين لتزداد الحسرة على الكافرين
ويتضاعف الخزى والسوء على المستكبرين..

قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ﴿٥١﴾ غافر الآية ٥١.



حسرات

قال الله تعالى ﴿ قُلْ كَمْ لِيَشْرَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾
 قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلَى الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ
 لِيَشْرَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴿ المؤمنون الآيات
 من ١١٢ - ١١٤ .

يظل الخاسرون في حوار وسؤال تبكيت لهم وتقريع ، لتتضح الحقيقة
 كاملة ويزدادوا هما وغما وكربا، ولتحيط بهم الحسرة من كل جانب..
 فيقال لهم: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟

السؤال عن مدة إقامتهم في الدنيا أو مدة مكثهم في القبور..

فإذا كان الأول مرادا فالمعنى أن هؤلاء الخاسرين قد منحوا فرصة
 العمر وجاءهم النذير في إطار العقل الذي كرم الله به بنى الإنسان كما
 قال الله تعالى ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ
 الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمُرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ
 النَّذِيرُ ﴾ فاطر الآية ٣٧ .

فيكون السؤال دافعا لهم إلى الاعتراف بضلالهم وانحرافهم
 وبعدهم عن الحق، وسفههم وضعف عقولهم لأنهم لم ينتنعوا بنعمة
 الحياة الدنيا..

وإذا كان الثانى مرادا فالمعنى أن هؤلاء الخاسرين قد عاجلهم عذاب القبر عقب موتهم وظلوا فيه أحقابا حتى قامت الساعة، ويكون السؤال بيانا لهم أن سابق عذابهم لا يساوى شيئا بما ينتظرهم من عذاب الخلود فى الجحيم..

وقد تناسى الخاسرون المدة سواء كانت عمرهم فى الدنيا أو عذابهم فى القبر، وغاب عقلهم عن استيعاب الموقف وأحالوا الجواب إلى من يستطيع الإحصاء ﴿ قَالُوا لَيْسَ لَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴾ (١١٣) .. ويأتى الجواب الإلهى ﴿ قُلْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) ليؤكد لهم الحقيقة المرة، وهو أن مكثهم فى الدنيا أو عذابهم فى القبر ليس إلا قليلا لما ينتظرهم من حياة السرد وعذاب الأبد..

ولو عقلوا هذه الحقيقة ما قالوا كلمة الكفر ولا فعلوا فعال الجاهلية ولا وقفوا موقف العدا والاستهزاء من أهل الحق..



حكمة الخلق

قال قال الله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ المؤمنون الآيات ١١٥، ١١٦.

نقترب من ختام سورة المؤمنون كى تقرر الحقيقة الغائبة، وهى أن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يترك سدى، وأن له موعدا لن يخلف مع الله رب العالمين..

فالإنسان تشغله ماديات الحياة، وتغريه مطالب الشهوة، ويخدعه الشيطان حتى ينسى حكمة خلقه وغاية وجوده.. فليس من المعقول أن يوجد الإنسان بما يحمله من عظام الخلق وغرائب التدبير، وبما منح من مزايا، وما خص به من تكريم، ثم يكون ذلك الخالق عبثا لاهيا، لا يرتب الأسباب والمسببات ولا يدرى الحكم والغايات..

أو يكون ذلك الخلق للعبث واللهو فيمارس الإنسان حياته بلا مسئولية ويقضى عمره بلا تبعات..

كلا الأمرين: عبث الخالق أو عبث المخلوق مستحيل، فكل ما حوى الوجود ينطق بالحكمة، قال الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾
ص الآية ٢٧.

وقال جل شأنه ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ﴿٣٦﴾ القيامة
الآية ٣٦.

فلا بد - إن - من رجعة إلى الخالق، رجعة فوق التصور، ولا تخضع
لنوازين البشر، فهي ليست رجوعا من مكان إلى مكان، يحتاج إلى
مواصلات وقطع الفيافي والقفار، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

فالبعث حق، والذي أبدع الخلق الأول لا يعجزه أن يعيده ثانيا،
بل الإعادة أهون في نظر العقل والمنطق، قال تعالى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٧٦﴾ يس الآية ٧٩.
وقال جل شأنه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ
عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٢٧﴾
الروم الآية ٢٧.

إن الباعث هو الله الملك الحق الواحد الأحد رب الكون بأجمعه ومدبر
أمر الكائنات كلها، فالملك هو المالك الحقيقي لا يبديد ملكه ولا يزول،
والحق هو المستحق للجلال والكمال والجمال، وهو الثابت أزلا وأبدا،
لا إله إلا هو فهو المعبود بحق لا معبود سواه..



خاتمة السورة

قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١١٨) ﴿ المؤمنون الآيات ١١٧ ، ١١٨ .

تأتى هذه الخاتمة لسورة المؤمنون تأكيدا لعقيدة التوحيد القائمة على العقل والنظر والمدعمة بالحجة والبرهان فإن الإيمان لا بد أن ينشأ عن علم، قال تعالى ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ محمد الآية ١٩ .

فالنواميس الكونية الثابتة والنظام البديع المحكم، واستقامة الخلق كل فى مسيرته - دليل وحدة الخالق.. قال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء الآية ٢٢ .

والذين يدعون إليها آخر ويتخذون لله أندادا - يتمردون على منطق العقل الصحيح وستكون عاقبة أمرهم خسرا، وحسابهم على الله، أى إن عقابهم بلغ من الشدة والقسوة والقوة ما لا يقدر عليه إلا الله، فهو وحده الذى يوفى الكافرين جزاءهم الذى يستحقونه هوانا وذلة وصغارا وشقوة أبدية.. وهنا مجموعة ملاحظات:

• قوله ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ بصيغة المضارع يفيد استمرار الشرك وامتداد الانحراف العقلى مع بقاء الإنسان، فلن تخلص

الدنيا للحق أو للباطل وستظل سنة المدافعة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

● قوله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ بيان للواقع فليس هناك إله آخر ببرهان، فدعوى الشرك قائمة على التقليد الأعمى والانسحاق المجرد والاستهزاء بالعقل..

● قوله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ جاء في ختام السورة الكريمة ليناسب افتتاحها الذي أثبت الفلاح للمؤمنين في قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾، فهما نقيضان في الاعتقاد والجزاء، فالإيمان نقيض الكفر، والفلاح نقيض الخسران.

● جاء الأمر بالدعاء بالمغفرة والرحمة عقب اثبات بطلان دعوى الشرك، وتحقق الجزاء المهين للمشركين، كما جاء الأمر نفسه في سورة محمد عقب الأمر بالعلم بتوحيد الله عز وجل في قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ محمد الآية ١٩، فكلًا الموقفين يحتاج إلى لطف من الله وعون منه سبحانه، فالإقلاع عن الشرك يحتاج إلى التماس مغفرة الله ورحمته، وعقيدة التوحيد تحتاج إلى تطهير مستمر والتجاء إلى مغفرة الله وعفوه..

